

الرحلات العلمية التواتية نحو المغرب الأقصى في الفترة الحديثة – دراسة في ظاهرتي التأثير و التأثر

The Scientific Journeys of Touat towards Morocco during the Modern Era–A Study in the Phenomena of Influence and Affectedness

د. سالم بوتدارة

جامعة أدرار/ الجزائر، salem2900@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/01/14 تاريخ القبول: 28/ 01/ 2021 تاريخ النشر: 2021/05/05

ملخص:

تعتبر الرحلة في طلب العلم مظهرا من مظاهر الحركة العلمية والنشاط الثقافي، ففيها تحصل الملاقاة بأعيان العلماء ونبيهاء الطلبة، وبها يكتسب طالب العلم ملكات جديدة، وبسببها يتم جلب أمهات الكتب ونفائس المصنفات العلمية.. ولقد أدرك التواتيون كغيرهم من الجزائريين هذه الفوائد فشدوا الرحال لتقصيها وتحصيلها، فقصدوا حواضر شتى كتونس ومصر وحواضر المشرق العربي وبلاد السودان الغربي والمغرب الأقصى، هذا الأخير الذي شكلت حواضره منذ قرون محط أنظار العديد من العلماء وطلبة العلم التواتيين الذين نزلوا بالمغرب مؤثرين في الحركة العلمية هناك ومتأثرين بها، ومساهمين في بناء علاقات ثقافية نشيطة بين حاضرتهم وحواضر المغرب الأقصى في الفترة الحديثة.

الكلمات الدالة: توات، المغرب، الرحلات، العلماء، المخطوطات.

Abstract:

Journeys to seek knowledge are considered aspects of scientific movement and the cultural activity, in which excellent scholars and students meet to exchange knowledge, precious books and valuable volumes. Like the other Algerians, people of Touat have been aware of these benefits; as a result, they have traveled to different cities such as Tunisia, Egypt, Arabic cities in the East, Western Sudan and Morocco. This latter has been the direction of scholars and students of Touat since centuries where they have affected the scientific movement and they have been affected as well. They have also enriched the cultural

relationships between Touat and the cities of Morocco in the Modern Era.

Keywords: Touat ,Morocco, Travelling, Scientists, Scripts.

مقدمة:

تعتبر منطقة توات الواقعة بالجنوب الغربي الجزائري، ملتقى تجمع واستقرار بشري منذ فترة قديمة، وقد شكلت نقطة تواصل هامة بحكم موقعها الجغرافي بين حواضر ومدن المغرب الإسلامي في الشمال والمراكز الحضارية الواقعة جنوب الصحراء، وربطت مع حواضر تلك البلدان علاقات ثقافية شاملة تأثيرا وتأثرا، عن طريق الرحلات العلمية لطلبة العلم والعلماء.

وسترصد هذه الدراسة - عن طريق المنهج التاريخي وأدواته - إجابة مقتضبة عن إشكالية محورية تتعلق أساسا بدوافع وظروف الرحلات التوأمية نحو المغرب الأقصى في الفترة الحديثة، والتعرف على أشهر العلماء الذين رحلوا إلى هناك، ومدى مساهمتهم في إثراء المشهد الثقافي بالمغرب.

1. لمحة عن المكانة العلمية لحاضرة توات وحواضر المغرب الأقصى في الفترة

الحديثة

تربع توات حاليا على أجزاء عديدة من ولايتي أدرار وتمنراست بالجزائر، وقد حددت هذه الأجزاء التي عرفت بإقليم توات من طرف المؤرخين المتقدمين¹ الذين رسموا لها معالم متباينة اتسمت بالبساطة أحيانا وبالتركيب أحيين أخرى.

وقد تميزت منطقة توات بكثرة المراكز والبيوتات العلمية خلال الفترة الحديثة، وازدهار النشاط العلمي بها، ومرّد ذلك جملة من المعطيات التاريخية، شكّلت خلفيات متراكمة لانبعاث الحركة الثقافية بالمنطقة، حيث توزعت المراكز والمدارس والزوايا عبر ربوع القصور التوأمية من شمالها إلى جنوبها، مع تسجيل نوع من التمايز في المستويات والقدرات، أملت طبيعة كلّ قصر وخصوصياته، وكان لتلك المراكز والعلماء القائمين عليها عظيم الفضل في تكوين نخب علمية.

وبالرغم من صعوبة الوصول إلى توات في تلك الفترة، نظرا لوقوعها في أقاصي الصحراء، فإن ذلك لم يحل دون تفاعلها مع محيطها الخارجي، حيث تمكنت من رسم علاقات ثقافية متعددة مع الحواضر والبلدان في الشمال والجنوب، شكلت على مر العقود شبكة واسعة من التقارب والتواصل العلمي وتبوّأت بذلك مكانة بين الحواضر السائدة في الفترة الحديثة.

وإذا كان هذا عن حاضرة توات، فإن بلاد المغرب الأقصى وما تحويه من حواضر علمية هامة تُعتبر بمثابة مركز إشعاع ثقافي في شمال إفريقيا خلال الفترة الحديثة، لذا اتخذها طلبة العلم والعلماء التواتيون وجهتهم العلمية الأولى، فشدوا الرحال للتعليم في المدارس والجوامع هناك، فارتسمت بذلك معالم العلاقات الثقافية بعد أن كانت مجرد هجرات تحمل طابع اجتماعي بحثا عن الرزق أو الأمن بين حاضرة توات وحواضر بلاد المغرب الأقصى.

وقد كان لوقوع توات على محور الحج المغربي في أزمنة خلت دور مهم في صنع وتمتين العلاقات العلمية من خلال رحلات الحجاج المغاربة، وهجرات بعضهم إلى توات واستقرارهم بها، حيث يعود الفضل في التأسيس العلمي لحاضرة توات إلى كثير ممن حلّوا بها قادمين من المغرب الأقصى، حاملين معهم بذور الإزدهار العلمي.

ولم يكن الأعلام أو العلماء المغاربة وحدهم من جسدوا تلك الصلات العلمية بين حواضر المغرب الأقصى وحاضرة توات، فقد كان القسط الأكبر في هذه العلاقات قد صنعه طلبة العلم التواتيون الذين فرضوا وجودهم على المشهد الثقافي بالمغرب، رغم المنافسة العلمية الحادة، وجعلوا من التّلمذ على علمائها والحصول من عندهم على إجازات علمية مفخرة وهدف أسمى يتكبدون عناء السفر ومشقته لتحصيله، مما أهّل الكثير منهم إلى الانتصاب في منابر العديد من حواضر المغرب، وطاب لهم المقام هناك، حتى وافت المنية بعضهم هناك فدفنوا بها، ومقابرهم - إلى يوم الناس هذا - شاهدة على ذكراهم التي جمعت بين توات وحواضر المغرب الأقصى في تواصل علمي منقطع النظير.

2. العوامل المشجعة للرحلات العلمية

للرحلات العلمية عوامل ومسببات، يُعدّ توفرها محرك قوي ساعد طلبة العلم والعلماء على السفر والترحال، ومن تلك العوامل نذكر:

1.2 . الوحدة المذهبية:

إن عموم المذهب الملكي في بلاد المغرب الإسلامي بما فيه توات، ساعد على تبادل الآراء في القضايا والنوازل الفقهية بين أهل توات والحوضر الأخرى ومثال ذلك نازلة اليهود التي وصل صداها إلى فاس والجزائر العاصمة وتلمسان وتونس، إضافة إلى أن الوحدة الدينية والمذهبية سهّلت على بعض أعلام توات في رحلاتهم تبوأ مقاعد للتدريس والإفتاء²، كلها أسباب مهدت لهم توطيد الصلة ببلاد المغرب الأقصى.

2.2 . طلب الإجازات العلمية:

الإجازة مصطلح علمي ابتكره علماء الإسلام في بداية عصور الرواية، وهي في معاجم اللغة مأخوذة من الإذن³، الهدف منها توثيق العلوم المتمثلة في ذلك الوقت بالقرآن الكريم ومرويات السنة المطهرة، ثم تطورت لتشمل الكثير من العلوم.

يحصل الباحث من خلال الإجازة على حق الرواية، أي الإذن في الرواية وبذلك يمكنه المشاركة في الساحة العلمية، وتكون الإجازة بإذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته ولو لم يسمعها منه، ولو لم يقرأها عليه، وذلك بقوله أجزت لك أن تروي عني كتابي هذا أو كتاب فلان الذي حدثني به، أو ما صحّ عندك من مسموعاتي.⁴

وعندما يجيز الشيخ الطالب في علم أو مجموعة من العلوم أخذها عنه، يذكر سنده في ذلك العلوم، مبينا الشيوخ الذين أخذ عنهم، متسلسلين إلى مصدرها الأول، فقد كان ذكر السند من علامات الثقة لذا أصبح العديد من طلبة العلم التواتيون يشدون الرحال إلى المغرب لأجل الحصول على إجازة من عالم مشهود له.

3.2 . تقارب مناهج التعليم والثقافة:

حيث أن التشابه الحاصل في طرق التدريس ومناهج التلقي بين توات وحوضر المغرب الأقصى، يسهل على الوافدين الاستيعاب في الحلقات العلمية والفائدة نفسها بالنسبة للطلبة

التوأتين عند تنقلهم إلى المغرب الأقصى، والأمر هذا شجع كذلك العلماء والشيوخ على عقد مجالس علمية لهم بالمغرب، وعموما نجد ابن خلدون يشيد بنجاعة هذه المناهج وراثتها عند تعرضه لمناهج التلقي في المشرق والمغرب⁵.

4.2. الموقع الوسط بين حواضر الشمال وبلاد السودان:

حيث تعتبر توات همزة وصل ما بين الشمال والجنوب حيث تمر بها الكثير من طرق القوافل التجارية وركب الحجيج والمسافرين، ولم تكن هذه القوافل بمنأى عن الاحتكاك العلمي، وخلق ظاهري التأثير والتأثر⁶، مما ولّد علاقات علمية انعكست إيجابيا على الحركة العلمية والفكرية بتوات.

5.2. الزوايا والمؤسسات التعليمية:

إن تعدّد وظائف الزوايا تعليم وإطعام وإيواء جعل طلبة العلم وعابري السبيل يقصدونها من كل جهة فساهم ذلك في تعرفهم على المنطقة، فكانوا بمثابة همزة الوصل بين مناطقهم المختلفة وتوات، هذا إضافة إلى الدور التي مارسته الزوايا الصوفية بطرقها المختلفة.

6.2. مساهمة الطرق الصوفية في تشجيع الرحلات التوأمية إلى المغرب الأقصى:

عرفت الطرق الصوفية انتشارا واسعا في بلاد المغرب منذ القرن الخامس الهجري نتيجة الإتصال بالمشرق عن طريق الحج والرحلات، والتلمذ على أعلام التصوف، وانتشار المؤلفات الصوفية كالرسالة القشيرية، وإحياء علوم الدين للغزالي، فظهرت ببلاد المغرب عدة طرق صوفية، انبثقت عن طريقتين أساسيتين هما الطريقة القادرية والطريقة الشاذلية.

وقد تنوع نشاط هذه الطرق، فقامت بأدوار متنوعة من خلال نشاط شيوخها وزواياها المتواجدة في مختلف المناطق، حيث ساهمت بدور فاعل في التواصل بين دول المغرب العربي وكانت دافعا إلى شد الرحال من أجل ملاقة شيوخ الطريقة واخذ الأوراد⁷.

كما ساهمت الزوايا التي أسسها شيوخ الطرق في كل من الجزائر والمغرب، من خلال الدور الذي كانت تقوم به والوظائف المتعددة التي أنيطت بها، في مظاهر التواصل بين هاته المناطق، وهذا بفضل التعليم الذي جعلته في متناول المجتمع، وبنشاط شيوخها، الذين ساهموا

في نشر التصوف، والعلوم الدينية، حيث صارت قبلة للطلبة والأتباع من مختلف الجهات، فأصبحت لزوايا الغرب والجنوب الغربي الجزائري بما فيه توات صلة بزوايا المغرب الأقصى. ومن هنا اكتسبت الظاهرة الصوفية في شكلها الطرقي، أهميتها وخصوصيتها المتميزة عن طريق الانتشار خارج الحدود الجغرافية، وبرز التصوف المغربي كعامل موحد بين الشعوب والأقطار المغاربية، وساهمت فيه الثقافة المشتركة التي سمحت بالتواصل وتعزيز الروابط ووحدة الإلتقاء، وخلق صلات روحية بين سكان المغرب الأقصى ومنطقة توات.

7.2. تقارب العادات والتقاليد:

وذلك عن طريق المهرجات والتواصل الاجتماعي، وهكذا نلاحظ تشابها كبيرا بين ساكنة توات من جهة وأهل فاس وغيرها من حواضر المغرب الأقصى من جهة أخرى، خاصة فيما يتعلق بأساليب الحياة الاقتصادية والحرف والصناعات وغيرها من أساليب إقامة الأفراح والمناسبات، مما يشجع الطلبة والعلماء على التنقل أو الاستقرار مساهمين بذلك في تفعيل حركية المعاملات والعلاقات المختلفة بما فيها العلمية والفكرية.

8.2. حركية التجارة والتجار:

تعتبر حركة التجارة والشغف بالتعلم عاملان أساسيان في فتح أبواب التعامل بين الشعوب الإفريقية، ومن ثمة أثرهما المباشر على العلاقات العلمية بين هذه الشعوب، حيث زاد نشاط التجار الفقهاء، وراجت تجارة الكتب رغم وقوع بعض المناطق في أقاصي الصحراء حيث تكثر المعيقات الطبيعية التي تعرقل مسيرة قاصديها، ومثال ذلك منطقة توات التي رغم موقعها البعيد عن عواصم الدول وحواضر العلم الكبرى القائمة في العصر الحديث، إلا أن استطاعت بفضل علمائها وموقعها على نقطة تقاطع طريقي القوافل التجارية شمالا وجنوبا مع خط قوافل الحجيج شرقا وغربا، أن تشكل شبكة واسعة من التقارب والتواصل العلمي.

ونظرا للموقع الإستراتيجي لمنطقة توات، بحكم كونها همزة وصل بين الشمال والجنوب، فقد حرصت القوافل التجارية، ومواكب الحجاج، والمسافرين المارين بها، التوقف

بأسواقها، قصد التزود بما تحتاجه إليه من المؤن والماء، فضلا عن التبادلات التجارية، التي كانت توفرها تلك الأسواق التوأمية للحجاج، والمسافرين.⁸

فقد كانت تمنطيط مركزا تجاريا بحكم توسطها الطريق الجنوبي، القادم من سجلماسة، والعائد إليها من تمبكتو، وصحراء التكرور، كما كانت تأتيها القوافل التجارية من الطريق الشرقي، والذي ينطلق من طرابلس، ليمر ببجاية، والمنيعه، ثم تمنطيط ليصل أخيرا إلى السودان الغربي.⁹

كما كانت هناك طرق تجارية أخرى تمر على توات، منها الطريق الوسط الشمالي، الذي ينطلق من توات، ليمر على واد الناموس، وعين الصفراء، والمشرية، وسعيدة، ليصل إلى مناطق الوسط من الشمال.¹⁰

والطريق الغربي الذي يتبع مجرى واد الساورة، وتسلكه القوافل التجارية المتجهة نحو سجلماسة، ومراكش، وفاس.¹¹

وترتبط توات كذلك بأسواق السودان الغربي عن طريق خط عين صالح، وأقبلي، المتجه نحو تمبكتو، المار بقصر المبروك، وأروان.¹²

هذا فضلا عن استعمال تلك الطرق التجارية، من طرف مواكب الحجاج، والمسافرين لمقاصد مختلفة.¹³

ولم تكن هذه القوافل التجارية، ومواكب الحجاج بمنأى عن الاحتكاك العلمي، وخلق ظاهرة التأثير، والتأثير، مما انعكس إيجابا على الحركة العلمية، والحضارية بمنطقة توات.

3. الرحلات العلمية التوأمية نحو حواضر المغرب الأقصى:

لِبيان تلك الصّلات العلمية سنركز على العنصر الفاعل فيها وهو المشائخ والعلماء الذين صنعوها وجسدوها على أرض الواقع، إضافة إلى إبراز القضايا والمسائل التي ساهمت بدورها في خلق جو التواصل الثقافي، وأيضاً إظهار طبيعة هذه العلاقات.

1.3. نحو حاضرة فاس:

تعتبر فاس¹⁴ العاصمة العلمية ومركز الإشعاع الثقافي في المغرب الأقصى، لذا اتخذها التواتيون وجهتهم العلمية الأولى، فشدوا الرحال للتعلم في مدارسها وجوامعها كالمدرسة المصباحية¹⁵ وجامع القرويين¹⁶ الذي تعظم إشعاعه الفكري والحضاري رغم تداعي الدول قياماً وسقوطاً، فارتسمت بذلك معالم العلاقات الثقافية بعد أن كانت مجرد هجرات تحمل طابع اجتماعي بحثاً عن الرزق أو الأمن بين الحاضرتين.

وقد كان لوقوع توات على محور الحج المغربي دور مهم في صنع وتتين العلاقات العلمية من خلال رحلات الحجاج المغاربة، وهجرات بعضهم إلى توات واستقرارهم بها، حيث يعود الفضل في التأسيس العلمي لحاضرة توات إلى كثير ممن حلّوا بها قادمين من فاس، حاملين معهم بذور الازدهار العلمي، كالشيخ سليمان بن علي الإدريسي الذي نزل بالديار التواتية قادماً من فاس سنة 580هـ/1184م، وأسس بأولاد وشن زاويته التي أصبحت مقصداً لطلبة العلم من كل مكان.¹⁷ وكذلك الشيخ ميمون بن عمرو بن محمد الباز الذي قدم مع أبيه وأخيه التهامي من فاس ونزلوا بتمنيط ثم استقروا بأولاد محمود،¹⁸ وبعد الشيخ ميمون أب العائلة البكرية بتمنيط التي تميزت بعلمائها الذين كان لهم الفضل في إدارة عجلة الحركة العلمية التي عرفتها المنطقة في العصر الحديث.

ولم يكن الأعلام أو العلماء الفاسيين وحدهم من جسدوا تلك الصلات العلمية بين حاضرتي توات وفاس، فقد كان القسط الأكبر في هذه العلاقات قد صنعه طلبة العلم التواتيون الذين فرضوا وجودهم على المشهد الثقافي بفاس، رغم المنافسة العلمية الحادة، وجعلوا من التلمذ على علمائها والحصول من عندهم على إجازات علمية مفخرة وهدف أسمى يتكبدون عناء السفر ومشقته لتحصيله، مما أهّل العديد منهم إلى الانتصاب في منابر فاس للتدريس، وتعدّت شهرتهم هذه المدينة إلى المغرب الأقصى برمته، وطاب لهم المقام بفاس حتى وافت المنية بعضهم هناك فدفنوا بها، ومقابرهم - إلى يوم الناس هذا- شهادة على ذكراهم التي جمعت بين توات وفاس في تواصل علمي منقطع النظير، ومن هؤلاء:

- الشيخ أبو الحسن علي بن الحاج التواتي: (ت 1058هـ / 1648م) ، الذي اشتهر بالعلم والصلاح، وضريحه بين المدن عدوة فاس، قرب مسجد الشوك، يُزار ويُتبرك به، وإليه يشير الشاعر في قوله¹⁹:
وسيدي علي التواتي بجامع الشوك من السُّرات.

- الشيخ عبد الرحمان المعروف بمعاذ التواتي (ت 1104هـ / 1693م) ، كان مشهورا بالصلاح عند الكافة من أهل فاس، ذا أحوال وكرامات، لا يأكل إلا من عمل يديه، أحبه الناس في حياته، ثم اختلفوا حول موضع دفنه بعد وفاته، فحفر له ثلاثة مقابر، كل يبتغي البركة من وراء ذلك²⁰ . وقد أشار إليه وإلى كراماته صاحب ارجوزة صلحاء فاس قائلا²¹:
كذا التواتي له كرامه *** من زاره نال به مرامه

- الشيخ عبد السلام بن محمد الجعفري التواتي (ت 1155هـ / 1742م) من المشهورين بعلمهم وتقواهم بفاس، لازم الجلوس في القرويين، وكان يجلس له أقوام لاستماع معارفه، فيأتي من ذلك بما يسحر الألباب ويقضي منه العجب العجائب، اعتلى مراتب الطريق والولاية، فكان يقول " الطريق أولها فنون ووسطها جنون وآخرها قيل يكون وقيل لا يكون "²².

- الشيخ الكوش التواتي الموري (ت 1158هـ / 1745م): كان آدم اللون، من أهل توات الذين استقروا بفاس، ثم انتقل إلى جزيرة المورة قرب البندقية، بعد أن سيطر عليها الأتراك العثمانيون، مقدما للطريقة الطيبية الوزانية، فانتشر صيته واشتهر بملازمة السنة واجتناب البدعة²³.

- الحاج محمد التواتي (ت 1183هـ / 1769م): دفن بفاس ، وحضر جنازته جمع عظيم ، وكذا زوجته فقد كانت طيبة العشرة ، كان هو يدعي أنها السبب في صلاحه وتقواه، بينما كانت هي تدعي في حياته وبعد مماته أنه السبب في صلاحها وتقواها، ولم تلبث حتى توفيت بعده ودفنت بإزائه²⁴.

- أبو العباس أحمد بن محمد بن النونان التواتي (ت 1187هـ / 1773م): من فحول الشعراء، يعود نسبه إلى العرب من بني معقل ممن توطنوا توات، كان والده من ندماء سلطان المغرب محمد بن عبد الله العلوي، وهو من كتيّ بأبو الشمقمق تشبيها بالشاعر الكوفي الماحن المشهور. ثم انتقل ذلك اللقب إلى أبنائه، ومنهم أبو العباس بن النونان.²⁵ كان صاحب قريحة سيّالة، وخاطر متدفق وفكر نقاد، قصد السلطان العلوي محمد بن عبد الله، ولما تعذر عليه الوصول إليه، اعترضه في موكبه ونادى بأعلى صوته:

يا سيدي سبط النبي *** أبو الشمقمق أبي

فعرّفه السلطان وأمر بإحضاره إلى منزله، فحضر وأنشد بين يديه الأرجوزة الشهيرة التي أصبحت تعرف بالشمقمقية، واشتهرت بين أدباء المغرب اشتهارا لا مزيد عليه، لما احتوته من أغراض شعرية وفنون أدبية مختلفة، مثل الغزل والوصف والحماصة والمدح والهجاء والحكم والأمثال وأيام العرب وأخبارها وعوائدها وأحوالها، مما يدل على غزارة علمه وقوة ملكته، وهي قصيدة قافية في نحو ثلاثمائة بيت.²⁶

وفضلا عن أولئك العلماء ذوي الأصل التواتي الذين عاشوا ودُفِنوا بفاس، تذكر المصادر المحلية عشرات الأعلام التواتيون الذين اتخذوا هذه الحاضرة محطة رئيسة من محطات حياتهم العلمية، وتصدّروا حلق التدريس والإفتاء خلال الفترة الحديثة، وقد عاد معظمهم إلى قصور توات محمّلا برصيد معرفي هام وخبرات متراكمة، ومساهما في تنشيط الحركة الثقافية بتوات، ومن أبرز هؤلاء الشيوخ:

- الشيخ عمر بن عبد القادر التلاني الذي رحل إلى فاس ومكث بها ثلاث عشرة سنة، حيث تتلمذ على عدة علماء معروفين بتضلّعهم في اللغة والنحو بحاضرة فاس، منهم العلامة النحوي محمد بن زكري الفاسي²⁷، ومحمد العربي بن محمد مقلب الفاسي²⁸، وإدريس المشاط²⁹، كما تصدر للتدريس بالمدرسة المصباحية وبجامع القرويين.³⁰

- الشيخ البكري بن عبد الكريم بن أمحمد الذي شدّ الرحال إلى مراكز العلم ومواطن العلماء فزار مراكش وفاس.³¹
 - الشيخ الشاذلي بن عمر بن عبد القادر التلاني (ت 1760/1173م): تتلمذ ودرّس بفاس مثل والده المذكور آنفا وتوفي هناك.³²
 - الشيخ عبد الرحيم بن محمد التواتي (1189هـ/1775م): تنقل إلى فاس لطلب العلم فحفظ القرآن بالقراءات السبع، ثم عاد إلى توات.³³
- ولم تكن الرحلات العلمية وتنقل الأشخاص إلى فاس وحدها من يصورها تلك العلاقات العلمية التي ربطت بين حاضرتي توات وفاس، بل كذلك المراسلات والمحاورات والفتاوى خاصة تلك المرتبطة بالنوازل كالذي حصل مع نازلة اليهود - كما تقدم ذكره-، أو كتلك المراسلة العلمية³⁴ التي كاتب الشيخ عبد الرحمان بن عمر التلاني علماء فاس حول ثلاث مسائل فقهية مستشكلاً كلام الشيخ علي الأجهوري، والشيخ الشبرخيتي، والشيخ الحرشي والشيخ الزرقاني في شروحهم على مختصر خليل، منتقدا كلامهم، مما حفّز الفقيهين المغربيين الشيخ التاودني بن سودة لوضع حاشية على الزرقاني، والشيخ الهلالي لضبط منهج دراسة كتب المذهب.³⁵

2.3. نحو حاضرة سجلماسة:

اعتبرت سجلماسة عبر تاريخها الطويل مركز استقطاب للعلماء ورجال العلم والأدب، وذلك بفعل عمقها التاريخي وثقلها الحضاري، وبفعل ساكنتها المختلطة النشيطة، وبفضل التيارات الفكرية والمذهبية.³⁶

وقد كانت تربطها مع توات طرق القوافل التجارية ومراكب الحجيج، حيث يذكر العياشي في رحلته أن طريق سجلماسة - توات، كانت من أفضل طرق الحج،³⁷ كما أن المحاولات التي قامت بها سجلماسة من أجل تنويع علاقاتها الثقافية سواء مع المشرق العربي أو مع المراكز الحضارية المطلة على البحر الأبيض المتوسط، لم تكن لتصل درجة محاولاتها لصنع علاقات متميزة بالممالك الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء، إذ رغم صعوبة مسالك

الصحراء الكبرى فإنها لم تكن أبدا حاجزا،³⁸ والمعلوم أن توات تتوسط الطريق الرابط بين سجلماسة والحواضر الإفريقية جنوب الصحراء كتنبكتو.

وكثيرا ما كانت قوافل ركب الحجيج أو حتى القوافل التجارية السجلماسية تحمل معها علماء أجلاء نزلوا بتوات، فتهافت طلبة العلم التواتيون على حلقاتهم مستغلين تواجدهم بينهم للحصول على العلم والإجازات، ومثال ذلك ما حصل للشيخ محمد المكي بن الصالح السجلماسي (ت. 12هـ)، الذي نزل أثناء أحد رحلاته بتيمة من بلاد توات، فقصده طلبة العلم ومنهم عبد الرحمان بن عمر التتلائي، حيث أخذ عنه علم التجويد بالقراءات السبع.³⁹

ولم يتّكل طلبة توات على من يحلّ بديارهم من العلماء لأخذ العلم عنه، بل ارتحلوا إلى مواطن أولئك العلماء لحضور مجالسهم، وذلك الذي بادر إلى فعله الشيخ عبد الرحمان بن عمر التتلائي نفسه، إذ ارتحل إلى سجلماسة للتعلم على يد الشيخ أحمد بن عبد العزيز الهلالي⁴⁰، وصالح بن محمد السجلماسي.⁴¹

ولقد حاول محمد بن عبد الرحمان بن عمر التتلائي تتبّع خطى أبيه، فقصده سجلماسة للدراسة على يد عالمها أحمد بن هلال السجلماسي، الذي أشاد بالمستوى العلمي لتلميذه، فراسل أباه عبد الرحمان مُخبراً إياه بقوله:

إن الهلال إذا رأيت نموه *** أيقنت أن سيكون بدرا كاملاً.⁴²

وهي إشارة من الشيخ الهلالي إلى أن علامات النجاة بادية على محمد بن عبد الرحمان التتلائي، وصفات العلماء ظاهرة عنده.

كما قصد الشيخ الفقيه الحاج محمد البلبالي حاضرة سجلماسة ومكث بها زمنا طويلا قبل أن يعود إلى توات ويعتزل الحياة وتصاريها.⁴³

ولم تقتصر العلاقات العلمية بين حاضرتي توات وسجلماسة على الملاقاة الشخصية الناتجة عن شدّ الرحال، بل شملت كذلك المراسلات، كتلك التي كان يقوم بها أحيانا بعض طلبة توات حين يسافر شيخهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي إلى المشرق ويطيء

عليهم مجيئه، أو يعتذر عليهم لقاءه، فإنهم يلجئون إلى مراسلته كتابيا في الزاوية التي كان يدرس بها في سجلماسة.⁴⁴

وقد أرسل الفقيه أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي محلي السجلماسي برسالة إلى القاضي أحمد عبد الله القراري (ت 1035هـ/1625م) يشهد له فيها بالتقدم في العلم والصلاح.⁴⁵

وتجدر الإشارة إلى أن عدد من طلبة توات تتلمذوا على يد الشيخ ابن أبي محلي السجلماسي، منهم الشيخ عبد الكريم بن أحمد التمنيطي (ت 1042هـ/1633م) الذي التقى به سنة 1013هـ/1605م، في مدينة بني عباس بالساورة فأخذ عنه النصف الأخير من ابن التلمساني في الفرائض.⁴⁶

خاتمة:

خلاصة ما سبق فإن النشاط العلمي كان أحد أهم دواعي الرحلات التوأمية نحو المغرب الأقصى، وقد ساهمت تلك الرحلات في فسخ المجال للتأثير والتأثر العلميين، وتدعيم العلاقات العلمية، حيث أعطتها نفسا جديدا، وذلك بتنوع المناهج والأساليب الدراسية، وتوسيع علاقات علماء الحواضر فيما بينهم، ووصل علومهم بأسانيد ومرجعيات راسخة عن ثقافت الأمة ورجالها، نتج عن ذلك إجازات علمية مُنحت لهم في حواضر المغرب الأقصى العلمية.

كما كان لركب الحجيج دور فعال في إعطاء مزيد من التواصل والاحتكاك بين العلماء والطلبة، مثلت محطات التوقف فيه فضاء واسع لهذا الاحتكاك. ومثلت أيضا المحاورات والمناظرات العلمية سبيلا للرحلات من أجل التواصل الفكري بين علماء المغرب ومنطقة توات، ووسيلة إلى توحيد الأفهام والاجتهادات، لتجسد دورا مهما تمثل في إخراج العلوم من دائرة التلقين والتلقي إلى دائرة النقاش والبحث.

الهوامش:

¹ - اعتبر العياشي (ت 1090هـ/ 1679م) قرى تسايت أول عمالة توات من جهة الشمال. يُنظر: أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، ماء الموائد، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويد لل نشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، ج1، ص 79. بينما تمتد توات في نظر محمد بن عبد الكريم البكري (ت 1374هـ/ 1955م) من تيلكوزة (70 كلم شمالي تيميمون) شمالا إلى عين صالح جنوبا. يُنظر: محمد بن عبد الكريم البكري، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، مخطوط بخزانة الشيخ عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، ص 10. في حين حصره مارتان (MARTIN) بين مقاطعتي بودة شمالا ورقان جنوبا. يُنظر:

A.G.P Martin: Quatre Siècle d'histoire Marocain, Librairie Félix Alcan, Paris 1923, p 10.

² - أحمد الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ج2، ص 215.

³ - ورد في القاموس المحيط أن الإجازة من الفعل استجاز أي طلب الإجازة بمعنى طلب الإذن، وقال ابن الفارس: "الجواز: الماء الذي يسقاه المال من الماشية والحرث، يقال منه استجرت فلانا من أجازني إذا استسقاك ماء لأرضك أو ماشيتك." ينظر: محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتبة تحقيق التراث، إشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط 8، 2005، ص 507.

⁴ - محمد بن علي اليلو الجزولي، الإجازات العلمية وعناية المغاربة بها، مركز ابن القطان للدراسات والأبحاث في الحديث الشريف والسيرة العطرة، المغرب.

www.alqwatan.ma/Article 2020/09/18

⁵ - عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001، ج2، ص 702.

⁶ - عبد الحميد بكري، النبذة في تاريخ توات وأعلامها من القرن 9 إلى القرن 14هـ، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط 1، 2005، ص 37.

⁷ - ابن سعيد علي بن موسى، كتاب الجغرافيا، تحقيق: إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة ببيروت، 1970، ص 126.

- ⁸ - فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18 و 19، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص78.
- ⁹ . مبروك مقدم، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ودوره في تأسيس الإمارة الإسلامية بإفريقيا الغربية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2006، ص71.
- ¹⁰ . نفسه، ص26.
- ¹¹ . فرج محمود فرج، المرجع نفسه، ص78.
- ¹² . مبروك مقدم، المرجع نفسه، ص26.
- ¹³ . نفسه ، ص27.
- ¹⁴ - فاس: أهم مدن المغرب الأقصى، أسسها السلطان إدريس الثاني ابن إدريس الأكبر سنة 192هـ 808م بعد أن ضاقت مدينة وليلي عاصمة الأدارسة الأولى بسكانها، وهي مدينتان: عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين. وقد تصاعدت عمارتها وتفجرت عيوّنها واستمر إشعاعها زمنا طويلا، خاصة بعد تأسيس جامع القرويين. أما اسمها فقليل أنه بسبب حمل السلطان إدريس فأسا يبدأ به الحفر ويختط به الأساسات، وقيل بسبب العثور على فأس كبيرة أثناء الحفر، وقيل بتغيير وقلب اسم مدينة قديمة كانت هناك منذ ألف سنة واسمها ساف. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، 1977م، ج04، ص230.
- ¹⁵ - المدرسة المصباحية: بناها السلطان ابو الحسن المريني، سميت نسبة إلى أبي الضياء مصباح أول من درّس بها، ينظر: محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحاذاة الأكياس فيمن أقر من العلماء والصلحاء بفاس، طبعة حجرية، المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 95، ج1، ص56.
- ¹⁶ - جامع القرويين: تم بناؤه من طرف السيدة أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني، بمالها الخاص الذي ورثته عن والدها بدءا من شهر رمضان سنة 245هـ / 859م، في عهد السلطان يحيى بن محمد بن إدريس، ثم صلت فيه شكرا لله تعالى الذي وفقها لذلك. ومع اتساع مدينة فاس أقيمت فيه الخطبة، وصنع له منبر من خشب الصنوبر، وكان أول من خطب فيه الشيخ عبد الله بن علي الفارسي. ينظر: علي الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب ابن منصور، الرباط: المطبعة الملكية، ط2، 1991م، ص46.
- ¹⁷ - مبارك جعفري، العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ، دار السبيل للنشر والتوزيع، بن عكنون، الجزائر، 2009، ص123-124.

- 18 - محمد بن عبد الكريم التمنيطي، درة الأقلام، مصدر سابق، ص 30-32.
- 19 - الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن قبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: محمد حمزة بن علي الكتاني، ط 4، الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس، 2005م، ج 01، ص 340.
- 20 - محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1996م، ج 05، ص 1827.
- 21 - محمد المشرع النجار الأندلسي، أرجوزة في مشاهير صلحاء فاس، تحقيق: خالد بن أحمد الصقلي، ظهر المهرارز، فاس، (د.ت)، ص 15.
- 22 - محمد حجي، المصدر السابق، ج 06، ص 2126.
- 23 - نفسه، ج 06، ص 2260.
- 24 - محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ص 108.
- 25 - مبارك جعفري، علماء توات في حاضرة القرويين بفاس، خلال القرن 12هـ، الملتقى الوطني الأول حول العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، 14-15 أبريل 2009، جامعة أدرار، أدرار، ص 139.
- 26 - عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط 2، المغرب، 1960م، ج 01، ص 31.
- 27 - هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن زكري، من أعلام فاس. توفي عام 1144هـ/1731م. يُنظر: أبي العباس أحمد المكناسي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص 165.
- 28 - هو أبو عبد الله محمد العربي بن مقلب الفاسي، فقيها متضلعا في القراءات السبع، يُنظر: محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، مصدر سابق، ج 5، ص 1961.
- 29 - هو إدريس بن المهدي المشاط المنافي. توفي سنة 1142هـ. ينظر: محمد حجي، نفسه، ج 5، ص 2024.
- 30 - نقل تلميذه عبد الرحمان بن عمر صورة حية عن أسلوب الإقراء والإلقاء قائلا: "... ولما اشتهر أمره وظهر حاله وفاح طيبه، طُلب منه الإقراء بجامع القرويين، فأقرأ به مدة جالسا على الأرض، ثم إن الطلبة لما كبرت الحلقة وضعف عن إبلاغ أقصاها نصبوا له كرسيًا ليجلس عليه، فلما جاء لموضعه على العادة وجده فأبى أن يجلس عليه وجلس بجذائه، فلما انفض المجلس ألح عليه الطلبة في الجلوس عليه وشكوه

عذرهم فلم يسعفهم بمراهم وأبى ذلك كل الإباية، فلما رأوا ذلك منه طلبوا حيلة يتوصلون بها لمراهم، فاتفق رأيهم على أن لا يتركوا له موضعا يجلس فيه إلا موضع الكرسي، فلما جاء غداة ذلك اليوم إلى المجلس، نظر فلم ير موضعا يجلس فيه إلا الكرسي، فجلس عليه. وأخبرني بعض أهل المجلس أنه لما جلس عليه، لم يزل لونه يحمر ويصفر حتى انفض المجلس، حياء منه وتواضعا رحمه الله". ينظر: عبد الرحمان التتلاي، تراجم بعض علماء ومشايخ الشيخ عبد الرحمان بن عمر التتلاي (فهرسة الشيوخ)، مخطوط بخزانة تينيلان، أدرار، الجزائر، ص 82.

³¹ - محمد بن عبد الكريم بكاوي، المصدر السابق، -نسخة اولف-، ص 01.

³² - عبد القادر بن عمر المهداوي، الدرة الفاخرة في ذكر مشايخ التواتية، مخطوط بخزانة شاري الطيب، كوسام، أدرار، الجزائر.، مصدر سابق، ص 12.

³³ - عبد الرحمان بن عمر التتلاي، فهرسة الشيوخ، مصدر سابق، ص 153.

³⁴ - عقب الشيخ عبد الرحمان انتقاده لكلام الشيوخ بقوله: "وبالجملة فكلام هؤلاء الشراح ومن اعتمدهم في الحكم والفتوى والعمل دون مراجعة من تقدمهم ممن يحرر النقول كالشارحين وابن غازي والخطاب والمواق والتوضيح وابن عرفة وغيرهم كابن ناجي والقلشاني من شراح الرسالة لاشك انه لا يسلم من الخطأ لعدم تصدي هؤلاء رحمهم الله لتحرير النقل، وقد كنت إذا خالفتهم في نازلة لم يظهر لي من مخالفتهم النقل المحرر أو القياس الصحيح، يشتد نكير طلبة الصحراء عليّ لتقليدهم كلام هؤلاء الشراح، فنطلب ممن وقف على هذا المسطور من فقهاء مدينة فاس وفقهم الله تعالى وحرصها من البأس أو غيرها من بلاد مغربنا الأقصى أن يتأمله فإن كان صوابا تفضلا من الله تعالى فليعلم ذلك بخطه ليكون حجة لكاتبه، وإن كان خطأ فقد صدر من محله فلينبه راقمه ليرجع عنه ليتوب إلى الله تعالى ومن تبع عثرات هؤلاء السادات الذين لا يغترف إلا من فضلهم، ولا يسري هذا المسرى إلا بدلاتهم، والسلام على من يقف عليه من السادات ورحمة الله وبركاته، من خديمكم عبد الرحمان بن عمر التتلاي وفقه الله". ينظر: عبد الكريم البلبالي، غاية الأمان من أجوبة أبي زيد التتلاي، مخطوط بخزانة الأنصار، أنزجير، أدرار، جزء البيوع وما شاكلها، ص 05.

³⁵ - زهير قزان، حاضرة توات المالكية أعلامها نوازها وخصائصها، مذكرة ماجستير، إشراف محمد حوتية، جامعة أدرار، قسم الشريعة، تخصص فقه مالكي، السنة الجامعية 2010-2011، ص 58.

- 36 - لحسن تاوشيخت، سحلماسة كمحطة للتواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء، أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهزامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1999م، ص 230.
- 37 - أبو سالم العياشي، المصدر السابق، ج 1، ص 71.
- 38 - لحسن تاوشيخت، المرجع نفسه، ص 230.
- 39 - عبد الرحمان بن عمر التنايني، فهرسة الشيوخ، مصدر سابق، ص 187.
- 40 - هو أبو العباس أحمد بن علي بن إسحاق بن إبراهيم السحلماسي، كان إماما فقيها مشاركا في علوم مختلفة. توفي عام 1175هـ/1761م. ينظر: محمد حجي، موسوعة أعلام المغرب، مصدر سابق، ج 7، ص 237.
- 41 - عبد الرحمان بن عمر التنايني، المصدر نفسه، ص 195.
- 42 - نفسه.
- 43 - عبد الرحمان الجنتوري، نوازل الجنتوري: مخطوط بخزانة الصوفي، بدریان، أدرار، الجزائر، ص 116.
- 44 - عبد الرحمان بن عمر التنايني، المصدر نفسه، ص 187.
- 45 - جاء في نص الرسالة التي بعث بها ابن أبي محلي السحلماسي إلى الشيخ أحمد عبد الله الجباري ما يلي: " إلى من لا يزال فلك المودة على قطب أشكاله في البرية يدور، وسماء الولاية دائما بقمر شهود أمثاله في الحنادس ينور، ظريف الشمائل، وشريف الوسائل، شمس أحبائه، وسري أصفائه، غرة وجه القبول، وشامة خد الوصول، العالم العامل، الحاكم العادل، العارف بنفسه فلا يضره العجب، الراغب في أنسه فلا يسره غير القرب، الفقيه النبيه، السيد الوجيه، قاضي الجماعة، وسخي الجماعة، أبي عبد الله محمد عبد الله بن عبد الكريم بن أحمد الوطاسي ثم الجباري". ينظر: عبد الكريم بن أحمد التواتي: الرحلة في طلب العلم، مخطوط بخزانة الشيخ أحمد ديدي، تمنطيط، ص 14.
- 46 - نفسه، ص 15.